هل تذكرون ارتحششتا والاسكندر المقدوني؟

بقلم الياس بجاني

مسؤول لجنة الإعلام في المنسقية العامة للمؤسسات اللبنانية الكندية

يعلمنا التاريخ أن ما من أمة من الأمم العظيمة قد تمكن منافسوها من هزيمتها عسكرياً، جميع تلك الأمم انهارت أولاً من الداخل، تزعزعت أسسها وتفككت مقوماتها قبل أن تُطلق عليها رصاصة الرحمة من قِبل أعدائها، ولنا في الدولة العثمانية والإمبراطورية الرومانية أفضل مثال. ويُعلمنا الطب أن الجسم العليل الفاقد لمناعته يكون باستمرار عرضة للأمراض على مختلف أنواعها فيما يقوى الجسم المتعافي على الصمود. هذا الواقع التاريخي والطبي ينطبق على مواقف البعض من أهلنا في لبنان وبلاد الانتشار المتعاونين مع القوى الغريبة، العاملين على خيانة قضايا الوطن، المتاجرين بدم وعرق أهلنا، البائعين لكرامتهم وشرفهم بثلاثين من فضة. مواقف هؤلاء المخجلة هي قمة في الانهزامية الذاتية كونهم عن عمد أو جهل لا فوق، يتناسون تاريخ شعبهم العنيد المتجذر في تربة لبنان المقدسة منذ ٧٠٠٠ سنة.

يبرر المنبطح انهزاميته بكلام حق يراد به باطل مفاده "الشطارة تكمن في التعامل مع الأمر الواقع، والإيد يلي ما فيك عليها بوسها ودعي عليها بالكسر" "ومن الضرورة أن لا نغيب عن أي موقع حتى ولو كان تحت هيمنة المحتل".

لقد غاب عن بال القلة الكافرة هذه أن الشعب اللبناني ما رضخ في يوم من الأيام لمشيئة محتل أو غازي وصخور نهر الكلب تشهد على هذا الواقع المشرف. نُذكر من أصيب بحالة فقدان الذاكرة الطوعية أن سكان مدينة صيدا سنة ٣٥٠ ق.م وبعد أن قاوموا ببسالة الغازي الفارسي ارتحششتا قاموا بحرق مدينتهم بمن فيها مفضلين الموت بكرامة على الاستسلام والإذلال. وصور قاومت الاسكندر المقدوني سبعة شهور سنة ٣٣٢، لم تستسلم ولم تركع مما حذى به بعد الاستيلاء عليها إلى صلب العديد من سكانها وبيع الفين منهم كعبيد. أما البطريرك الماروني جبرائيل حجولا فقد فضل الموت حرقاً سنة ١٣٦٧ في مدينة طرابلس أمام الجامع العمري رافضاً أن يترك أبناء قومه يعذبون ويهانون من قبل المماليك، ونفس المصير كان اختاره قبله البطريرك دانيال الحدشيتي في نفس المكان سنة ١٢٨٢ ولأسباب مشابهة.

في المبدأ يُعتبر الانسان مهزوماً لو ربح العالم كله وكان من داخله متجابناً عن قول الحق والشهادة للحقيقية، فيما الشجاع حامل راية الكرامة والقيم يبقى منتصراً مرفوع الرأس حتى ولو وضع في غياهب السجون،كبلت يديه بالأصفاد وقيدت قدميه بالسلاسل.

نذكر من يخاف اتخاذ المواقف، يتلون، يداهن ويتجنب المجاهرة بالحقيقة بأنه يرتكب جرماً بأفعاله هذه. عن هؤلاء قال الإمام علي (كرم الله وجه): إن الراضي بفعل قومٍ كالداخل فيه معهم، وعلى كل داخلٍ في باطلٍ إثمان: إثم العمل به، وإثم الرضا به".

الجبان هو أعمى بصيرة وضميره متخدر، وقد جاء في إنجيل القديس يوحنا ١٢-٣٩: "أَعمى عيونهم وقسى قلوبهم، لئلا يبصروا بعيونهم ويفهموا بقلوبهم ويتوبوا فأشفيهم".

البعض من مدعي الوطنية والمقاومة أقاموا الدنيا ولم يقعدوها بعد بضوضائيتهم الادعائية متباهين ومفاخرين بأنهم من الميامين الذين لا يرتدون بوجه الشدائد، وقد اشبعوا الناس بيانات، عنتريات وتنظيرات، فيما هم أثبتوا ميدانياً وعند أول "قطوع" تعرضوا له أنهم "بالهريبة كالغزلان"، وأن خصورهم رخوة تميل مع ريح المصالح والمنفعة. يا أصحاب العضلات استفيقوا من ثباتكم، كفاكم كفراً وهرطقات، وتوبوا قبل فوات الأوان. اشهدوا للحق، جاهروا بالحقيقة، وسموا الأشياء بأسمائها. لا تنساقوا وراء أطماعكم ولا تتركوا بريق العباءات وتفرعاتها يعمي عيونكم ويقسي قلوبكم.

عار على أهلنا الذين يعيشون في بلدان ديموقراطية مثل كندا وأميركا واستراليا وغيرها حيث حرية الكلمة مقدسة أن يتجابنوا عن الشهادة لقضية وطن الأرز المقدسة، ويغضوا الطرف عن معاناة أهلهم المعتقلين في السجون السورية، متحججين بألف حجة وحجة، فيما أبطال لبنان، طلابه وشبابه الشجعان يرفعون لواء السيادة والحرية والاستقلال علناً دون خوف أو تردد متحدين قايين وقواته ودُماه.

يبقى أن على الذين ارتضوا العبودية، ويشعرون بالهزيمة في داخلهم بعد أن استنفذوا كافة حجج التلون والركوع وشذوا عن الطريق القويم، أن يتعظوا من قول السيد المسيح: "إن ثبتّم في كلامي، كنتم حقاً تلاميذي تعرفون الحقّ والحق يحرركم (يوحنا ٨-٣٢)

٢٠٠٣/٨/١٨